لقد خلق الله سبحانه وتعالى فوقنا سبع سماواتٍ بعضهنّ فوق بعض، وتركب العليا منهنّ السّفلى منهنّ. وما كان الله سبحانه وتعالى غافلاً عمّا خلق ومهملاً له. إنّ واجبنا أن نعتبر ونتّعظ بخلق الله سبحانه وتعالى السّماوات السّبع والأرضين السّبع وقد قال عزّ من قائل(١): ﴿لخلق السّماوات والأرضِ أكبر من خلق النّاس ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون﴾ والله سبحانه وتعالى هو وحده لا شريك له الّذي يمسك السّماوات والأرض أن تزولا إلاّ بإذنه عزّ وجلّ فعلينا أن نعتبر ونتّعظ ونفرد الله تعالى بالعبادة. جاء في سورة الحجّ(٢) قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ألم تر أنّ الله سخّر لكم ما في الأرض والفلكَ تجرى في البحر بأمره ويمسك السّماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه. إنّ الله بالنّاس لرءوفٌ رحيم﴾ وجاء في سورة فاطر. قول الحقّ جلّ وعلا(٣): ﴿إنّ الله يُمْسك السّماوات والأرضَ أن تزولا. ولئن زالتا إن أمسكهما(٤) مِنْ أحدٍ من بعده. إنّه كان حليماً غفورا﴾.

وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾

ومنها تأكلون: ومن الفواكه تأكلون. وقد يجوز أن تكون الهاء والألف من ذكر الجنّات، ويحتمل أن تكون من ذكر النّخيل والأعناب(٥) كأنّه معطوف على

(١) سورة غافر ٥٧.

(٢) الآية ٦٥.

(٣) الآية ٤١.

(٤) إن أمسكهما: ما يمسكهما.

(٥) تفسير الطّبري ١٨/ ١٠

شيءٍ مقدّر تقديره تنظرون إلى حسنه ونضجه ومنه تأكلون(١).

وشجرة : وأنشأنا لكم أيضاً شجرة(٢) وشجرة منصوبة عطفاً على الجنّات. ويعنى بها شجرة الزّيتون(٣).

تخرج من طور سيناء: الطّور اسم جبل مخصوص(٤) قال ابن عبّاس: هو جبلٌ بالشّام مبارك(٥) نودي منه موسى ﷺ(٦) وسيناء قرأته عامّة قرّاء المدينة والبصرة سِيناء بكسر السّين. وقرأ ذلك عامّة قرّاء الكوفة سَيْناء بفتح السّين، وهما جميعاً مجمعون على مدّها. وهما قراءتان بمعنى واحدٍ فبأيّتهما قرأ القارىء فمصيب(٧).

تنبت بالدّهن : الباء للتّعدية(٨) من الثّلاثي نبت(٩) فقداختلفت القرّاء في قراءة قوله : ﴿تنبت﴾ فقرأته عامّة قرّاء الأمصار : تَنْبُت، بفتح التّاء بمعنى تنبت هذه الشّجرة بثمر الدّهن. وقرأه بعض قرّاء البصرة: تُنْبِت، بضمّ التاء، بمعنى تنبت الدّهن تخرجه(١٠) ونبت وأنبت لغتان(١١) ومعنى : ﴿تَنْبُتب بالدّهن﴾

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٤٣.

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ١٠.

(٣) تفسير الطّبري ١٨/ ١١.

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «طور» ٣٠٩.

(٥) تفسير الطّبري ١٨/ ١١.

(٦) تفسير الطّبري ١٨/ ١١.

(٧) انظر تفسير الطّبري ١٨/ ١١.

(٨) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٩/ ١٥١

(٩) الجلالين.

(١٠) تفسير الطّبري ١٨/ ١٢.

(١١) تفسير الطّبري ١٨/ ١٢

تنبت هذه الشّجرة بثمر الدّهن[١] والـدّهن الّذي هو من ثمره الزّيت[٢] يقول ابن عبّاس : هو الزّيت يؤكل ويدهن به[٣] ويـقول الرّاغب الأصفهاني[٤] : «وقوله : ﴿تنبت بـالدّهن﴾ الباء للحال لا لـلتّعدية، لأنّ نَبَتَ مـتعدٍّ تقديره : تَنْبُـت حاملةً للدّهن، أي تنبت والدّهن موجودٌ فيـها بالقوّة» والمعروف أنّ نبت لازم. ابن سيده : نبت الشّيءُ ينبُت نبتاً ونباتاً[٥].

وصبغ للآكـلين : يقول : تنبـت بالدّهن وبصبغ لـلآكلين يصطبـغ بالزّيت الّذين يأكلونـه[٦] والصِّبغ : ما يُصْطَبَغُ به مـن الإدام[٧] وقال الفرّاء[٨] : يقول الآكلون يصطبغون بالزّيت فجعل الصِّبغ الزّيت نفسه. وقال الزّجّاج : أراد بالصّبغ الزّيتـون. قال الأزهري : وهذا أجود الـقولين لأنّه قـد ذكر الدّهن قبـله. قال : وقوله : ﴿تنبت بالدّهن﴾ أي تنبت وفيـها دُهْنٌ ومعها دُهن كقولك : جاء في زيدٌ بالسّيف أي جاءني ومعه السّيف. وصبغ اللّقمـة يصبُغها صَبْغاً : دهنها وغمسها، وكلُّ ما غُمِسَ فقد صُبِغ[٩].

وأنزل الله سبحـانه وتعالى من الـسّماء والسّحاب مـاءً عذباً فراتاً بكـمّيّات مقدّرة مضبوطة فلا تزيد مع الرّحمة كي تكون طوفاناً عارماً يهلك البلاد والعباد، ولا تقلّ عن الحاجة فـيكون مع نقص الماء أوشحّه هلاك الحـرث والنّسل. وإنّ هذا

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ١٢.

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ١٢.

(٣) تفسير الطّبري ١٨/ ١٢.

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «نبت» ٤٨.

(٥) لسان العرب : «نبت».

(٦) تفسير الطّبري ١٨/ ١٢.

(٧) لسان العرب : «صبغ».

(٨) انظر معاني القرآن للفرّاء ٢/ ٢٣٣.

(٩) لسان العرب : «صبغ».

الماء الّذي جعل الله سبحانه وتعالى منه كلّ شيءٍ حيّ قد أسكنه الله تعالى في الأرض بتغلغله في أعماقها، وسلكه ينابيع سائرة، وعيوناً مائرة، وبحيراتٍ حائرة، وأنهاراً جارية، وجداول مترقرقة، إضافةً إلى الآبار الممتلئة، والمستودعات الأرضيّة المفعمة، وما إلى ذلك.

إنّ الله سبحانه وتعالى أسكن الماء في الأرض بأن جعل الأرض مقدّرة الانحدار مضبوطته وبالتّالي تجرى الأنهار والجداول عادةً نحو الغاية والمصبّ مع تحقيق كلّ المنافع للخلق. إنّ الأرض ليست شديدة الانحدار كي تتحوّل مجارى الأنهار شلاّلات وكي يتّجه الماء كلّه فوراً إلى المصبّ وبالتّالي لا ينتفع الخلق بالماء ولا يستقرّ الماء في الأرض. وإنّ الأرض ليست مستويةً كي يركد الماء الحلو ويأسن. إنّ حركة الماء المقدّرة المضبوطة تبعاً لانحدار الأرض المقدّر المضبوط يتحقق معها بفضل الله تعالى حياة كلّ شيء. وهاهو ذا الماء يسكن في الأرض بإذن الله تعالى، ويصل إلى أعماق الصّحاري والقارّات بواسطة الرّياح المسخّرة لحمل السّحاب الثّقال.

وإنّ هذا الماء الّذي أسكنه الله تعالى في الأرض وجعله قريب التّناول يستطيع جلّ وعلا أن يذهب به إلى غير رجعةٍ لو شاء، ليس ـ مثلاً ـ عن طريق الذّهاب به سريعاً إلى الماء المِلْح فقط، وإنّما عن طريق جعل الحصول على الماء مستحيلاً كذلك، كأن يجعل عزّ وجلّ ما سكن بإذنه في الأرض من الماء غائراً في أعمق الأعماق. لقد جاء في سورة المُلْك الإيماء إلى استحالة الحصول على هذا النّوع من الماء، وذلك في قول الحقّ جلّ وعلا[1] : ﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غَوْراً فمن يأتيكم بماءٍ معين﴾.

إنّ هذا الماء الفرات الّذي أنزله الله من المزن وأسكنه في الأرض قد أنشأ الله سبحانه وتعالى لنا بسببه جنّاتٍ من نخيلٍ وأعناب، وهما أشرف أنواع الفواكه لدى العرب الّذين نزل القرآن الكريم بلسانهم، وهما رمزٌ لما سواهما من الثّمار اللّذيذة الطّعم. وإنّ لنا في تلك البساتين فواكه كثيرة الأنواع والكمّيّات نتفكّه بها ونتلذّذ.

(١) سورة الملك ٣٠.

ومن هذه الجنّات نحن نأكلّ ممّا رزقنا الله تعالى من الطّيّبات. ويأتى على رأس ما نأكل الحبوب الّتي تأتي على رأس ما يحتاجه الإنسان من غذاءٍ رئيسيّ. وحينما يتحدّث السّياق عن النّخيل والأعناب وهما فاكهةٌ في هيئة الرّطب والعنب مثلاً، وغذاءٌ في هيئة التّمر والزّبيب مثلاً، وحينما يتحدّث السّياق عن الفواكه الّتي يتفكّه بها الإنسان ويتلذّذ بعد تناول الغذاء الرّئيسيّ، يكون في كلّ ذلك الإيماء إلى أنّ القول : ﴿ومنها تأكلون﴾ ينصرف في المقام الأوّل إلى الغذاء الرّئيسيّ من الحبوب وما في حكمها.

وهكذا يكون الحديث عن الغذاء قد شمل كلّ أنواعه من غذاءٍ رئيسي كالحبوب، وغذاءٍ وفاكهةٍ معاً كالرّطب الّذي يتحوّل تمراً والعنب الّذي يصير زبيباً، وفاكهةٍ خالصة. والمعروف أنّ النّخيل والأعناب أشرف أنواع النّبات والفواكه عند العرب وذكرهما رمزٌ لسواهما.

وبقي الحديث عن شجرةٍ مباركة شريفة ثمرها غذاءٌ خالص، ألا وهي شجرة الزّيتون. لقد أنشأ الله تعالى وأوجد بالماء جنّات وأنشأ وأوجد شجرةً مباركةً زيتونةً تخرج أساساً من جبل الطّور في شبه جزيرة سيناء حيث كلّم الله تعالى موسى عليه السّلام وبعثه. إنّ هذه الشّجرة المباركة تنبت بالدّهن، وتنمو مشتملةً على ثمرة الزّيت، الّذي يَدْهَن به الدّاهنون الأجسام، ويَصْبِغُ به الآكلون الطّعام. ويتّخذ الطّاعمون الزّيت، وكذلك الزّيتون، نوعاً من الإدام، يستمرئون به الخبز، وما شاكله من أنواع الطّعام.

وَإِنَّ لَكُمْ فِي
ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ
وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

نسقيكم ممّا في بطونها: السَّقي والسُّقيا أن يُعْطيه ما يشرب، والإسقاء أن يجعل له ذلك حتّى يتناوله كيف شاء. فالإسقاء أبلغ من السَّقْي، لأنّ الإسقاء هو

أن تجعل له ما يُسْقَى منه ويشرب، تقول : أسقيتُهُ نَهَراً. قال تعالى[1] : ﴿وسقاهم ربّهم شراباً طهورا﴾ وقال : ﴿نسقيكم ممّا في بطونها﴾ بالفتح والضّم[2] ﴿نسقيكم ممّا في بطونها﴾ من اللّبن الخارج من بين الفرث والدّم[3].

وإنّ لكم أيّها النّاس في الأنعام من الإبل والبقر والغنم لعبرةً وعظةً تستدلّون بها على قدرة الله تعالى المطلقة. إنّ الله سبحانه وتعالى يُسْقينا ممّا في بطونها من لبن إناثها ويجعل لنا ذلك اللّبن حتّى نتناوله متى شئنا وكيف شئنا. وهذا اللّبن يخرج من بطون الأنعام من بين فَرْثٍ وهو ما في الكَرِش[4] ودمٍ لبناً خالصاً من الشّوائب، ومستساغاً لذيذاً للشّاربين. إنّ الغذاء إذا نَضِج في الكَرِش أو المعدة يُصْرَف منه دمٌ إلى العروق، ولبنٌ إلى الضّرع، وبولٌ إلى المثانة، وروثٌ إلى المخرج، وكلٌّ منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه ولا يتغيّر به[5] وقد أومأت إلى هذه المعاني الآية الكريمة من سورة النّحل. قال عزّ من قائل[6]: ﴿وإنّ لكم في الأنعام لعبرة. نُسْقيكم ممّا في بطونه من بين فرثٍ ودمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشّاربين﴾.

وقد أشار السّياق على الإجمال إلى المنافع الكثيرة من الأنعام. ونذكر منها بيوت الرّعاة من جلود الأنعام، تلك البيوت الّتي يستسهلون حلّها وحملها حينما يسافرون، ونصبها وضربها حينما يستقرّون، ونذكر منها كذلك أثاث البيوت وزينتها الّتي تكون من أصواف الغنم، وأوبار الإبل، وأشعار المعز. وقد أومأت

---

(١) سورة الانسان ٢١.

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «سقى» ٢٣٥.

(٣) تفسير الطّبري ١٨/ ١٢.

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «فرث» ٣٧٤.

(٥) تفسير ابن كثير ٢/ ٥٧٤.

(٦) سورة النّحل ٦٦.

إلى هذه المعاني الآية الكريمة من سورة النّحل. قال عزّ من قائل[1] : ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفّونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومِنْ أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين﴾.

وإنّ النّاس يأكلون من لحوم الأنعام بفضل الله تعالى، كما أنّ النّاس يُحْمَلون وتُحْمَل أثقالهم في البَرّ على الإبل بخاصّة من بين الأنعام، ويُحْملون وتُحْمَل أثقالهم في البحر على السّفن والمراكب.

وبشأن النّاقة على جهة الخصوص، هي تُرْكب، ويُشْرَبُ لبنها، ويُنْتَفع بوبرها، ويؤكل لحمها.

---

(١) سورة النّحل ٨٠.

(٤)
(أرسل الله تعالى رسله بدين التّوحيد)
الآيات (٢٣ ـ ٥٠)

وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ
إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ
مَلَٰٓئِكَةً ۖ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا
رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى
بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا
وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن
كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ
مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾
فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا
مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ
ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾

أفلا تتّقون : أفلا تخشون بعبادتكم غيره عقابه أن يحلّ بكم(١).

فقال الملأ الّذين كفروا من قومه : فقالت جماعة أشراف قوم نوح الّذين جحدوا توحيد الله وكذّبوه(٢).

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ١٣.

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ١٣.

ما هذا إلاّ بشرٌ مثلكم : ما نوحٌ أيّها القوم إلاّ بشرٌ مثلكم، إنّما هو إنسانٌ مثلكم وكبعضكم(١).

يريد أن يتفضّل عليكم : يريد أن يصير له الفضل عليكم فيكون متبوعاً وأنتم له تبع(٢).

ولو شاء الله لأنزل ملائكه: ولو شاء الله ألاّ نعبد شيئاً سواه لأرسل بالدّعاء إلى ما يدعوكم إليه نوحٌ ملائكةً تؤدّى إليكم رسالته(٣).

ما سمعنا بهذا في آبائنا الأوّلين : ما سمعنا بهذا الّذي يدعونا إليه نوحٌ من أنّه لا إله لنا غير الله في القرون الماضية، وهي آباؤهم الأوّلون(٤).

إن هو إلاّ رجلٌ به جنّة : ما نوحٌ إلاّ رجلٌ به جنون(٥).

فتربّصوا به حتّى حين : فانتظروا به ريب المنون واصبروا عليه مدّةً حتّى تستريحوا منه(٦) وإلى زمن موته(٧).

قال ربّ انصرني بما كذّبون : بسبب تكذيبهم إيّاي بأن تهلكم(٨).

الفلك : السّفينة(٩).

بأعيننا : بمرأىً منّا ومنظر(١٠).

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ١٣.

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ١٣.

(٣) تفسير الطّبري ١٨/ ١٣.

(٤) تفسير الطّبري ١٨/ ١٣.

(٥) تفسير الطّبري ١٨/ ١٣.

(٦) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٤٤.

(٧) الجلالين.

(٨) الجلالين

(٩) تفسير الطّبري ١٨/ ١٣.

(١٠) تفسير الطّبري ١٨/ ١٣.

ووحينا : وبتعليمنا إيّاك صنعتها[1] عن ابن عبّاس : وذلك أنّه لم يعلم كيف صنعة الفلك، فأوحى الله إليه أن يصنعها على مثل جؤجؤ الطّائر[2] والجؤجؤ من الطّائر والسّفينة : الصّدر. على وزن هدهد[3].

فإذا جاء أمرنا : فإذا جاء قضاؤنا في قومك بعذابهم وهلاكهم[4].

وفار التّنّور : عن ابن عبّاس : فار نبع[5] قال أبو جعفر: وفوران الماء سورة دفعته. يقال منه : فار الماء يفور فوراً وفوراناً وذاك إذا سارت دفعته[6] وعن ابن عبّاس : التّنّور وجه الأرض، أي صارت الأرض عيوناً تفور حتّى فار الماء من التّنانير الّتي هي مكان النّار صارت تفور ماءً. وهذا قول جمهور السّلف وعلماء الخلف[7] ورجح ابن جرير الطّبريّ أن يكون التّنّور هو الّذي يخبز فيه، لأنّ ذلك هو المعروف من كلام العرب. وكلام الله لا يوجّه إلاّ إلى الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب، إلاّ أن تقوم حجّةٌ على شيء منه بخلاف ذلك فيسلّم لها[8].

فاسلك فيها : فأدخل في الفلك واحمل[9].

من كلٍّ زوجين اثنين وأهلك : أي ذكراً وأنثى من كلّ صنفٍ من الحيوانات

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ١٣

(٢) تفسير الطّبري ١٢/ ٢١.

(٣) انظر مثلاً القاموس المحيط : «الجأجاء».

(٤) تفسير الطّبري ١٨/ ١٣.

(٥) تفسير الطّبري ١٢/ ٢٥.

(٦) تفسير الطّبري ١٢/ ٢٥.

(٧) تفسير ابن كثير ٢/ ٤٤٥.

(٨) تفسير الطّبري ١٢/ ٢٥.

(٩) تفسير الطّبري ١٨/ ١٣.

والنّباتات والثّمار وغير ذلك، وأن يحمل فيها أهله[1] وهم ولده ونساؤهم[2].

إلاّ من سبق عليه القول منهم : إلاّ من سبق عليه القول من الله بأنّه هالك فيمن يهلك من قومك فلا تحمله معك[3].

ولا تخاطبني في الّذين ظلموا إنّهم مغرقون: ولا تسألني في الّذين كفروا بالله بأن أنجيهم فإنّي قد حَتَمْتُ عليهم أن أغرق جميعهم[4].

فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك : فإذا اعتدلت في السّفينة أنت ومن معك ممّن حملته معك من أهلك راكباً فيها عالياً فوقها[5].

الظّالمين : المشركين[6].

وقل ربّ أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين : وقل إذا سلّمك الله وأخرجك من الفلك فنزلت عنها ربّ أنزلني منزلاً من الأرض مباركاً. وأنت خير من أنزل عباده المنازل[7] والمُنْزل، بضمّ الميم وفتح الزاي بمعنى الإنزال، والمَنْزِل، بفتح الميم وكسر الزّاي بمعنى المكان والموضع، وهما قراءتان[8].

إنّ في ذلك لآيات : لعبراً لقومك من مشركي قريش وعظاتٍ وحججاً لنا عليهم يستدلّون بها على سنّتنا في أمثالهم فينزجروا عن كفرهم ويرتدعوا عن تكذيبك، حذراً أن يصيبهم مثل الّذي أصابهم من العذاب[9].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٤٤.

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ١٤.

(٣) تفسير الطّبري ١٨/ ١٤.

(٤) تفسير الطّبري ١٨/ ١٤.

(٥) تفسير الطّبري ١٨/ ١٤.

(٦) تفسير الطّبري ١٨/ ١٤.

(٧) تفسير الطّبري ١٨/ ١٤.

(٨) انظر تفسير الطّبري ١٨/ ١٤.

(٩) تفسير الطّبري ١٨/ ١٤

وإن كنّا لمبتلين : الواو عاطفة . إن : مخفّفة من الثّقيلة، واسمها ضمير الشّأن محذوف. اللّام هي الفارقة. مبتلين: خبر كنّا منصوب(١) وكنّا مختبريهم بتذكيرنا إيّاهم بآياتنا لننظر ما هم عاملون قبل نزول عقوبتنا بهم(٢).

كان النّاس بعد آدم عليه السّلام أمّةً واحدةً مسلمةً لله ربّ العالمين ثمّ اختلفوا وتفرّقت بهم السّبل عن سبيل الله تعالى فظهرت الحاجة لإرسال الرّسل. لقد كان نوحٌ عليه السّلام أوّل الرّسل والأب الثّاني للبشريّة فقد نجّاه الله تعالى والمؤمنين معه من الغرق بواسطة السّفينة الّتي أمره الله تعالى بصنعها. إنّ السّياق يقرّر أنّ ربّ العزّة والجلال قد أرسل نوحاً عليه السّلام إلى قومه المنحرفين عن سواء السّبيل فقال يا قوم اعبدوا الله تعالى وحده لا شريك له. ليس لكم من إله غيره ولا معبود بحقٍّ سواه. أفلا تخافون الله تعالى وتخشونه بإشراككم مع الله تعالى في العبادة سواه. والمعروف أنّ الدّين عند الله تعالى الإسلام وأنّه عزّ وجلّ أرسل الرّسل أجمعين بدين الإسلام لله تعالى ربّ العالمين، وهاهو ذا نوحٌ عليه السّلام يدعو قومه إلى إفراد الله تعالى بالعبادة.

وجرياً على عادة المترفين المنحرف كثيرٌ منهم عن سواء السّبيل يقول السّادة والكبراء الكافرون من قومه عليه السلام: ليس نوحٌ إلاّ إنساناً مثلكم يريد أن يكون له الفضل والسّؤدد عليكم، بأن يكون متبوعاً وتكونوا تبعاً له، ولو شاء الله تعالى أن يُعْبد وحده لأنزل ملائكةً لا أن يرسل واحداً من البشر. إنّ هذا الّذي يدعونا إليه نوحٌ عليه السّلام ما سمعنا به في آبائنا الأوّلين المشركين الّذين نهتدى بهديهم ونقتدى بهم. ليس نوحٌ إلاّ رجلاً به جنون فتربّصوا به حتى زمن موته، وانتظروا به ريب المنون حتّى تتخلّصوا منه ومن إزعاجه لكم بدعوتكم إلى توحيد الله تعالى.

لقد لبث نوحٌ عليه السّلام يدعو قومه ألف سنة إلاّ خمسين عاماً فما ازدادوا إلاّ عتوّاً ونفورا. جاء في سورة العنكبوت(٣) قول الحقّ جلّ وعلا :

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٩/ ١٥٧.

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ١٤.

(٣) الآية ١٤ و١٥

﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنةٍ إلاّ خمسين عاماً فأخذهم الطّوفان وهم ظالمون. فأنجيناه وأصحاب السّفينة وجعلناها آيةً للعالمين﴾ وعلى الرّغم من تلك السّنوات الطّوال الّتي ظلّ فيها نوحٌ عليه السّلام يدعو قومه فإنّه لم يؤمن معه عليه السّلام إلاّ قليل. وتجاه إصرار قومه على الشّرك وعلى إيذائه سأل الله سبحانه وتعالى أن ينصره بسبب تكذيب قومه عليه السّلام له.

أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نوحٍ عليه السّلام أن يعمل السّفينة بإتقان، وأن يصنعها بمرأىً من الله تعالى وإلهام. لقد أوحى الله سبحانه وتعالى إلى نوحٍ عليه السّلام أن يعمل السّفينة على هيئة صدر الطّائر. ولمّا أخذ نوحٌ عليه السّلام يصنع السّفينة في البرّ بعيداً عن البحر، وهي سفينة عظيمة، أخذ قومه يسخرون منه عليه السّلام وممّا قالوه: كنتَ نبيّاً وصرت نجّاراً وتعمل سفينةً في البرّ! وقد بادلهم نوحٌ عليه السّلام سخريةً بسخرية. وإلى تلك المعاني أومأت هذه الآية الكريمة. قال تعالى(١): ﴿ويصنع الفلك وكلّما مرّ عليه ملأٌ من قومه سخروا منه. قال إن تسخروا منّا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون﴾.

فإذا جاء أمر الله تعالى بهلاك القوم غرقاً، وإذا نبع الماء من المكان الّذي يُخْبَزُ فيه، دليلاً على نبع الماء من وجه الأرض عموماً، بما في ذلك التّنانير الّتي هي مكان النّار، وصارت الأرض عيوناً تفور، إيذاناً بهلاك القوم غرقاً، عن طريق العيون المتفجّرة، والسّحب المنهمرة، فإنّ على نوحٍ عليه السّلام أن يحمل في السّفينة ويدخل معه زوجين اثنين من كلّ أصناف الحيوانات والنّباتات والثّمار وغير ذلك، وأن يحمل معه أهله وهم ولده ونساؤهم إلاّ من سبق عليه القول منهم كولده الكافر كنعان فيما يقال(٢) ويقال بل إنّ اسمه يام(٣) وكزوجه عليه السّلام الّتي أشارت إليها هذه الآية الكريمة(٤) من سورة التّحريم: ﴿ضربَ الله مثلاً

(١) سورة هود ٣٨.

(٢) الجلالين.

(٣) تفسير الطّبري ١٢/ ٢٨ و١٨/ ١٤ وتفسير ابن كثير ٢/ ٤٤٦.

(٤) الآية ١٠.

للّذين كفروا امرأة نوحٍ وامرأة لوط. كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النّار مع الدّاخلين﴾ وأن يحمل عليه السّلام معه في السّفينة المؤمنين بطبيعة الحال وكانوا قليلى العدد. جاء في سورة هود(١) قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿حتّى إذا جاء أمرنا وفار التّنّور قلنا احمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين وأهلك إلاّ من سبق عليه القول ومن آمن. وما آمن معه إلاّ قليل﴾.

وينهى الحقّ جلّ وعلا نوحاً عليه السّلام أن يخاطبه في الّذين أشركوا فكتب عليهم الهلاك. إنّهم مغرقون حتماً بمشيئة الله تعالى. فإذا اعتدل نوحٌ عليه السّلام وعلا هو ومن معه على السّفينة فعليه أن يحمد الله تعالى الّذي نجّاهم من القوم الظّالمين بصرف العبادة عن الله تعالى، الّذي يستحقّها وحده لا شريك له، إلى غيره. فإذا رست السفينة، على نوح عليه السّلام أن يسأل ربّه عزّ وجلّ بأن يُنْزله إنزالاً مباركاً، فالله تعالى هو خير المنزلين. إنّ السّفينة تجرى باسم الله تعالى، وترسو باسم الله تعالى. وإلى هذا المعنى أشارت الآية الكريمة من سورة هود(٢) قال تعالى : ﴿وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومُرْساها. إنّ ربّي لغفورٌ رحيم﴾.

وإذا كانت سورة المؤمنون قد تحدّثت في شيءٍ من التّفصيل عن نوحٍ عليه السلام مع قومه فإنّ سورة هود قد تحدّثت أكثر من سورة المؤمنون في قصّة نوحٍ عليه السّلام مع قومه، وذلك في الآيات الكريمات من الخامسة والعشرين إلى الثّامنة والأربعين.

إنّ في ذلك الإهلاك للكافرين من قوم نوحٍ عليه السّلام لحججاً واضحات لكفّار مكّة ومن شاكلهم من الكافرين كي يعتبروا. وإنّ الله تعالى كان مختبراً قوم نوحٍ عليه السّلام بإرساله إليهم، وإنّ أهل مكّة لمختبرون بمحمّد ﷺ.

---

(١) الآية ٤٠.

(٢) الآية ٤١.

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ
مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ
إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم
مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا
ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ
عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ
غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾

ثمّ أنشأنا من بعدهم: ثمّ أحدثنا من بعد مَهْلك قوم نوح(١).

قرناً آخرين: القرن القوم المقترنون في زمنٍ واحد وجمعه قرون(٢).

فأرسلنا فيهم رسولاً: هو صالحٌ عليه السّلام الّذي أرسله الله تعالى إلى ثمود قومه عليه السلام(٣) لقوله تعالى في الآية الكريمة الحادية والأربعين:

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ١٤.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «قرن» ٤٠١.

(٣) انظر تفسير الطّبري ١٨/ ١٥.

﴿فأخذتهم الصّيحة بالحقّ﴾ وقيل المراد بهم عـادٌ فإنّهم كانوا مستخلفين بعدهم(١) والظّاهر أنّـه اجتمع عليهـم صيحةٌ مع الرّيـح الصّرصر العاصف الـقويّ البارد(٢) الّذي أهلكم الله تعالى به.

وأترفناهم في الحياة الدّنيا : ونعّمناهم في حياتهم الدّنيا بما وسّعنا عليهم من المعاش وبسطنا لهم من الرّزق حتّى بطروا وعتوا على ربّهم وكفروا(٣).

ويشرب ممّا تشربون : ويشرب ممّا تشربون منه(٤).

هيهات هيهات : اسم فعل ماض بمعنى بَعُدَ والثّاني توكيدٌ للأوّل(٥).

إن هي إلاّ حياتنا الدّنيا : ما حياةٌ إلاّ حياتنا الدّنيا الّتي نحن فيها(٦).

نموت ونحـيا : تموت الأحياء مـنّا فلا تحيا، ويـحدث آخرون منّا فـيولدون أحياء(٧).

إن هو إلاّ رجلٌ افترى عـلى الله كذبا : ما صالحٌ إلاّ رجلٌ اخـتلق على الله كذباً(٨).

عمّا قليل : عن قليل(٩).

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٤٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٤٥.

(٣) تفسير الطّبري ١٨/ ١٥.

(٤) تفسير الطّبري ١٨/ ١٥.

(٥) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٩/ ١٦١.

(٦) تفسير الطّبري ١٨/ ١٦.

(٧) تفسير الطّبري ١٨/ ١٦.

(٨) تفسير الطّبري ١٨/ ١٧.

(٩) تفسير الطّبري ١٨/ ١٧.

فجعلناهم غثاءً : فصّيرناهم بمنزلة الغثاء، وهو ما ارتفع على السّيل ونحوه، كما لا ينتفع به في شيء، فإنّما هذا مثل. والمعنى فأهلكناهم فجعلناهم كالشّيء الّذي لا منفعة فيه(١).

ثمّ أنشأ الله تعالى وأوجد من بعد قوم نوحٍ عليه السّلام المغرقين قوماً آخَرين. وهؤلاء القوم الآخَرون قد يكونون عاداً قوم هودٍ عليه السّلام جرياً على ما يجيء في القرآن الكريم عادةً من تحوّل الحديث من قوم نوحٍ عليه السّلام إلى قوم هودٍ عليه السّلام لأنّهم التّابعون زمناً. وبناءً على ذلك يكون القول في الآية الكريمة الحادية والأربعين : ﴿فأخذتهم الصّيحة بالحقّ﴾ مشيراً إلى الصّيحة الّتي اقترنت بالرّيح الصرّصر، الّتي أهلك الله تعالى بها عاداً، والّتي سخّرها الله تعالى عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيّامٍ فما تركت منهم من باقية. وقد يكون القوم الآخرون ثمود قوم صالحٍ عليه السّلام فإنّهم هم الّذين أخذتهم الصّيحة أو الصّاعقة. جاء في سورة القمر عن ثمود قول الحقّ جلّ وعلا(٢) : ﴿إنّا أرسلنا عليهم صيحةً واحدةً فكانوا كهشيم المحتظر﴾ وجاء في سورة الذّاريات قول الحقّ جلّ وعلا(٣): ﴿وفي ثمودَ إذ قيل لهم تمتّعوا حتّى حين. فعتَوْا عن أمر ربّهم فأخذتهم الصّاعقة وهم ينظرون. فما استطاعوا من قيامٍ وما كانوا منتصرين﴾ وسواءٌ كان القوم عاداً أو ثمود فإنّ العبرة قائمة.

وبما أنّ ربّ العزة والجلال أرسل جميع المرسلين بدين الإسلام لله تعالى ربّ العالمين فإنّ فحوى دعوة المرسلين أجمعين واحدة. إنّ هذا الرّسول الكريم يدعو قومه بدعوة نوحٍ عليه السّلام وذلك بتوحيد الله تعالى ونبذ الشّرك. إنّ عليهم أن يخافوا الله تعالى بهجر الأصنام وإفراد الله تعالى بالعبادة. وجرياً على عادة الكبراء المجرمين، يقول القوم الكافرون بالله تعالى، المكذّبون للرّسول الكريم، الّذين بدّلوا

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ١٧.

(٢) سورة القمر ٣١.

(٣) سورة الذّاريات ٤٣ ـ ٤٥.

نعمة الله تعالى كفراً وبَطِروا معيشتهم : ما هذا الّذي يزعم أنّه رسول ربّ العالمين إلاّ إنسانٌ مثلكم، يخضع للضّرورات كما تخضعون، فيأكل ممّا تأكلون منه ويشرب ممّا تشربون منه ويذهب إلى الغائط ويمشي في الأسواق طلباً للرّزق وهكذا. إنّه بشر، والمفروض في رسول الله تعالى أن يكون ملكاً! وإنّكم إن أطعتم بشراً مثلكم واتّبعتموه إنّكم إذاً لخاسرون مغبونون. وفي أسلوب الاستفهام يستنكر القوم الظّالمون وعد الرّسول الكريم لهم بأنّهم، بعد موتهم وتحوّلهم تراباً وعظاماً، مُخْرَجون من قبورهم أحياء للحساب فالجزاء، الثّواب في الجنة أو العقاب في النّار. بَعُدَ بَعُدَ ما توعدون من بعثٍ بعد الموت فحسابٍ فجزاء. ما حياةٌ إلاّ حياتنا الدّنيا يموت من انقضى أجله منّا، ويولد حيّاً من قذفت بهم الأرحام، وليس ثمّة بعثٌ بعد الموت أصلاً فضلاً عن أن يكون هنالك ما يترتّب على البعث من حساب فجزاء، ثوابٍ أو عقاب، جنّة أو نار. ما هذا الّذي يزعم أنّه رسول ربّ العالمين إلاّ رجلٌ افترى على الله تعالى كذباً فزعم أنّه رسوله، وأنّ علينا أن نعبد الله تعالى وحده ونعمل صالحاً، وأنّ بعد الموت حياةً وحساباً، وما نحن لهذا الّذي يزعم أنّه رسول الله تعالى بمصدّقين ومتّبعين.

ويلجأ الرّسول الكريم إلى بارئه عزّ وجلّ الّذي أرسله، ويشكو إليه جلّ وعلا القوم، ويسأله النّصر عليهم بسبب تكذيبهم. ويكون الوعد الحقّ بأنّ القوم الكافرين عن قريبٍ ليصبحنّ نادمين ولكنّهم لا ينفعهم النّدم.

وبإذن الله تعالى أخذت القوم الكافرين الصّيحةُ الواحدة باستحقاقهم العقاب منه بكفرهم به وتكذيبهم رسوله[1] وأهلكتهم الصّاعقة فجعلهم الله تعالى في الهوان وعدم النّفع كالغثاء والقَذى الّذي يحمله السّيل المتدفّق، فبعداً للقوم الظّالمين وسُحْقا، وطرداً لهم من رحمة الله تعالى الّتي وسعت كلّ شيءٍ وحيّ.

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/١٧.

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾

ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون: ما يتقدّم هلاكَ أمّة من تلك الأمم الّتي أنشأناها بعد ثمود قبل الأجلّ الّذي أجّلنا لهلاكها، ولا يستأخر هلاكها عن الأجل الّذي أجّلنا لهلاكها والوقت الّذي وقّتنا لفنائها، ولكنّها تهلك لمجيئه(١).

بعد أن أهلك الله تعالى ثمود قوم صالحٍ عليه السلام، أوجد عزّ وجلّ أقواماً آخرين. وبشأن المكذّبين من أولئك الأقوام الكافرين إنّما يهلكهم الله تعالى إذا أراد عزّ وجلّ هلاكهم، في الوقت الّذي تريده مشيئته جلّ وعلا. إنّ أيّ أمّة من الأمم الكافرة ما تسبق الوقت الّذي شاء الله تعالى هلاكها فيه ولو أنّها استعجلت العذاب استهزاءً، وما تتأخّر عن ذلك الوقت ولو أنّها آمنت بعد فوات الأوان. هذه هي سنّة الله تعالى في المكذّبين باستثناء قوم يونس عليه السّلام فإنّهم لمّا آمنوا نفعهم إيمانهم بإذن الله تعالى فكشف الله تعالى عنهم العذاب. وقد أشارت سورة يونس إلى هذا الاستثناء في الآية الكريمة الثّامنة والتّسعين الّتي جاء فيها اسم يونس عليه السلام، الّذي سمّيت السّورة الكريمة باسمه عليه السّلام لذكر اسمه فيها.

ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ
كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ
أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾

ثمّ أرسلنا رسلنا تترى: تترى، مصدر في موضع الحال أي متتابعين(٢) من المواترة(٣) والمواترة المتابعة، وأصل هذا كلّه من الوَتِر، وهو الفرد، وهو أنّى

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ١٧

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٩/ ١٦٤.

(٣) لسان العرب: «وتر»

جعلت كلّ واحد بعد صاحبه فردا[1] والوتر والوَتر: الفرد أو ما لم يتشفّع من العَدَد[2] والوتر في العدد خلاف الشّفع[3] والتّواتر : التّتابع. وقيل : هو تتابع الأشياء وبينها فَجَوات وفَتَرات [4] وجاءوا تَتْرَى وتَتْراً أي متواترين، التّاء مبدلة من الواو[5] وقوله تعالي : ﴿ثمّ أرسلنا رسلنا تترى﴾ من تتابع الأشياء وبينها فَجَوات وفَتَرات لأنّ بين كلّ رسولين فترة[6] قال محمّد بن سلام : سألت يونس عن قوله تعالى : ﴿ثمّ أرسلنا رسلنا تترى﴾ قال : متقطّعةً متفاوتة. وجاءت الخيل تترى إذا جاءت متقطّعة، وكذلك الأنبياء: بين كلّ نبيّين دهرٌ طويل. الجوهري: تترى فيها لغتان : تنوّن ولا تنوَّن مثل عَلْقَى، فمن ترك صرفها في المعرفة جعل ألفها ألف تأنيث، وهو أجود، وأصلها وَتْرى من الوِتر وهو الفرد، وتترى أي واحداً بعد واحد. ومن نوّنها جعلها ملحقة[7].

فأتبعنا بعضهم بعضا : فأتبعنا بعض تلك الأمم بعضاً بالهلاك، فأهلكنا بعضهم في إثر بعض[8].

وجعلناهم أحاديث : للنّاس ومثلاً يتحدّث بهم في النّاس. والأحاديث في هذا الموضع جمع أُحدوثة[9] والأحدوثة: ما يُتَحَدَّثُ به. ويقال : صار فلانٌ

---

(١) لسان العرب : «وتر»

(٢) لسان العرب : «وتر»

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «وتر» ٥١١

(٤) لسان العرب : «وتر»

(٥) لسان العرب : «وتر»

(٦) لسان العرب : «وتر»

(٧) لسان العرب : «وتر»

(٨) تفسير الطّبري ١٨/ ١٩.

(٩) تفسير الطّبري ١٨/ ١٩

أحدوثة: كثر فيه الحديث(١) وقد يجوز أن يكون جمع حديث. وإنّما قيل: ﴿وجعلناهم أحاديث﴾ لأنّهم جعلوا حديثاً ومثلاً يتمثّل بهم في الشّرّ. ولا يقال في الخير جعلته حديثاً ولا أحدوثة(٢).

فبعداً لقومٍ لا يؤمنون: فأبعد الله قوماً لا يؤمنون بالله ولا يصدّقون برسوله(٣).

كما أوجد الحقّ جلّ وعلا أمماً بعد هلاك قوم نوحٍ وعادٍ وثمود، وأهلك الظّالمين منهم، أرسل عزّ وجلّ رسله يتبع الواحد منهم الآخر على فترات. وكلّما جاء رسولٌ من الله تعالى قومه كذّبوه وآذوه، فأتبع عزّ وجلّ بعض الأمم بعضاً بالهلاك، وأهلك بعضهم في إثر بعض، وجعلهم جلّ وعلا أحاديث تجرى على كلّ لسان، وأخباراً يلهو بها المقيم ويلهو بها المدلج السّاري، وعبرةً يعتبر بها المعتبرون، ونكالاً يتّعظ به المتأخرون، ومَثَلاً ينتفع به العاقلون.

لقد أبعد الله تعالى كلّ أولئك الأقوام الّذين لا يؤمنون بالله تعالى ولا يصدّقون رسله الكرام، عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه، فأهلكهم الله تعالى وطردهم من رحمته.

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ
هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ
فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا
وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ
﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾

---

(١) المعجم الوسيط: «حدث»

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ١٩.

(٣) تفسير الطّبري ١٨/ ١٩

ثمّ أرسل الله سبحانه وتعالي موسى عليه السلام، كبير أنبياء بني إسرائيل وأخاه هارون عليه السّلام بآياته عزّ وجلّ البيّنات وحججه القاطعات، إلى فرعون مصر وكبراء قومه. لقد استنكف فرعون وملؤه أن يكونوا عبيداً لله تعالى، واستكبروا عن إفراده عزّ وجلّ بالعبادة، وكانوا قوماً في أعماقهم الكِبْر والغطرسة، وفي نفوسهم الاستعلاء على الآخرين، وبخاصّةٍ الفقراء والضّعفاء، والاحتقار لهم. وكانوا ينزّلون بني إسرائيل في ذيل القائمة. وقد جسّد فرعون وملؤه حقيقة كبرهم وتعاليهم في استفهامهم الإنكاريّ أن يؤمنوا وينقادوا لبشرين مثلهم، وهما موسى وهارون عليهما السلام، من بني إسرائيل، الّذين سامهم فرعون وملؤه الخسف، وأذاقوهم صنوف الذّلّ، حتّى إنّ بني إسرائيل لهوانهم في حكم من يعبد فرعون وملأه من دون الله تعالى.

وثمرةٌ طبيعيّةٌ نكدة للتّعالي واحتقار الآخرين أن يكذّب فرعون وملؤه موسى وهارون عليهما السّلام كان الهلاك من نصيب فرعون وملئه. وبعد أن نجّى الله تعالى موسى وهارون وقومهما عليهما السلام، وأغرق فرعون وملأه وجنده، آتى عزّ وجلّ موسى عليه السّلام التّوراة، لعلّ بني إسرائيل يهتدون بها من الضّلالة، ويخرجون من الظّلمات إلى النّور.

وَجَعَلْنَا

ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾

وآويناهما : وضممناهما وصيّرناهما(١).

إلى ربوة: إلى مكانٍ مرتفعٍ من الأرض على ما حوله. ولذلك قيل للرّجل يكون في رفعة من قومه وعزٍّ وشرف وعدد هو في ربوةٍ من قومه(٢) والرّبوة بتثليث الرّاء(٣) قال قتادة: هو بيت المقدس(٤).

ذات قرار : أي مستوية يستقرّ عليها ساكنوها(٥) قرّ في مكانه يَقِرّ قَراراً إذا ثبت ثبوتاً جامداً(٦).

ومعين : قال ابن عبّاس: المعين الماء الجاري، وهو النّهر الّذي قال الله(٧) : ﴿قد جعل ربّك تحتكِ سريّا﴾(٨).

جعل الله تعالى عيسى عليه السّلام وأمّه مريم ابنة عمران آيةً بيّنةً على قدرته عزّ وجلّ المطلقة، فقد وُلِد عيسى عليه السّلام من أنثى ولا ذكر. وثمّة ثلاث صور أخرى، جاء آدم وحوّاء عليهما السّلام في اثنتين منها، وجاء سائر النّاس في الصّورة الأخيرة منها. لقد خَلَقَ الله سبحانه وتعالى آدم عليه السّلام من طين، أي من دون أبوين، وخلق الله تعالى حوّاء عليها السّلام زوجه من ضِلَعه الأيسر،

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ٢٠

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ٢٠

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «ربو» ١٨٦

(٤) تفسير الطّبري ١٨/ ٢١ وانظر تفسير ابن كثير ٣/ ٢٤٦

(٥) الجلالين

(٦) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «قر» ٣٩٧

(٧) سورة مريم ٢٤

(٨) تفسير الطّبري ١٨/ ٢١

بمعنى أنّها خُلِقت من ذكرٍ ولا أنثى، وخلق الله تعالى سائر النّاس من ذكر وأنثى.

وقد آوى الله تعالى عيسى عليه السّلام وأمّه وضمّهما إلى ربوة بيت المقدس، وهي مكانٌ عالٍ مستوٍ يمكن استقرار السّاكنين فوقه لاتّساعه، كما أنّ في ذلك المكان ماءً جارياً ظاهراً فوق سطح الأرض. وهكذا هيّأ الله سبحانه وتعالى المكان الطّيّب المبارك لعيسى عليه السّلام وأمّه مريم ابنة عمران. ومن السّور الكريمات الّتي تحدّثت كثيراً عن عيسى عليه السّلام وأمّه مريم البتول سورة مريم في الآيات الكريمات من السادسة عشرة إلى الأربعين.

(٥)

(الرّسل وأممهم مأمورون بالأكل من الطّيّبات وعمل الصّالحات، وثواب المسارعين في الخيرات وعقاب المستكبرين)

الآيات (٥١ ـ ٦٧)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾

كلوا من الطّيّبات : كلوا من الحلال الّذي طيّبه الله لكم دون الحرام(١).

وإنّ هذه أمّتكم أمّةً واحدة : أمّةً حال منصوبة من أمّتكم(٢) وجاءت الحال جامدة لأنّها وصفت(٣) والأمّة في هذا الموضع الدّين والملّة(٤).

تنادي الآية الكريمة الأولى المرسلين وتأمرهم بأن يأكلوا من الحلال الّذي طيّبه الله تعالى لهم وبأن يجتنبوا الحرام من الأطعمة، كما تأمرهم بأن يعملوا الصّالحات. إنّ الله سبحانه وتعالى عليمٌ بما يعملون. وحينما يأمر الحقّ جلّ وعلا المرسلين صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين بأن يأكلوا من الطّيّبات وبأن يعملوا الصّالحات فمن باب الأحرى والأولى أن ينسحب ذلك على أتباع المرسلين من المؤمنين. ثبت في صحيح مسلم وجامع التّرمذيّ ومسند الإمام أحمد واللّفظ له عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يا أيّها النّاس إنّ الله طيّبٌ لا يقبل إلاّ طيّبا، وإنّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿يا أيّها الرّسل كلوا من الطّيّبات واعملوا صالحاً. إنّي بما تعملون عليم﴾ وقال(٥) : ﴿ يا أيّها الّذين آمنوا كلوا من طيّبات ما رزقناكم﴾ ثمّ ذكر الرّجلّ يطيل السّفر أشعث

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ٢٢

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٩/ ١٦٨

(٣) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٩/ ١٦٨هامش (١)

(٤) تفسير الطّبري ١٨/ ٢٢

(٥) سورة البقرة ١٧٢

أغبر، ومطعمه حرام، وملبسه حرام، وغُذِي بالحرام، يمدّ يديه إلى السّماء ياربّ يا ربّ فأنّى يستجاب لذلك(١).

وتقرّر الآية الكريمة الأخرى أنّ ملّة الإسلام الّتي بعث الله تعالى بها محمّداً ﷺ، خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين، عليهم جميعاً صلوات ربّ العالمين وسلامه، ملّةٌ واحدة هي الّتي بعث الله تعالى بها كلّ المرسلين السّابقين، ابتداءً بنوح، عليهم جميعاً صلوات ربّ العالمين وسلامه.

والمعروف أنّ الدّين الّذي لا يقبل الله تعالى من عباده ديناً سواه هو دين الإسلام. قال عزّ من قائل(٢) : ﴿إنّ الدّين عند الله الإسلام﴾ وقال تعالى(٣) : ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ وقد بعث الله تعالى محمّداً ﷺ بالحنيفيّة السّمحة دين إبراهيم عليه السّلام في صورتها الأخيرة الكاملة. وإنّ دين الإسلام الّذي بعث الله تعالى به محمّداً ﷺ ناسخٌ لسائر الدّيانات، ابتداءً بالدّيانين السّماويّتين، اليهوديّة والنّصرانيّة، ومن باب الأحرى والأولى غير السّماوية منها.

والآية الكريمة تأمر بتقوى الله تعالى : ﴿وأنا ربّكم فاتّقون﴾ والمعروف أنّ تقوى الله تعالى بمعنى أن يجعل العبد خشية الله تعالى بفعل الأوامر واجتناب النّواهي وقايةً له من عذاب الله تعالى. وبهذا المعنى تكاد تكون التّقوى الوجه الآخر للإحسان كما بيّنه الحديث النّبويّ الشّريف في تعريف الإحسان، بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك(٤).

ووجه الشّبه كبيرٌ بين هذه الآية الكريمة من سورة المؤمنون وبين الآية الكريمة من سورة الأنبياء. قال تعالى(٥) : ﴿إنّ هذه أمّتكم أمّةً واحدةً وأنا

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٧٤.

(٢) سورة آل عمران ١٩.

(٣) سورة آل عمران ٨٥.

(٤) صحيح البخاري ١/ ٢٠.

(٥) الآية ٩٢

ربّكم فاعبدون﴾ والآية الكريمة هنا تأمر بعبادة الله تعالى، وقد عرفنا أنّ تقوى الله تعالى إحدى الثّمار الشهيّة لإخلاص العبادة لله تعالى، وإحدى مقوّمات العبادة الصّادقة أيضاً.

والمعروف أنّ معنى العبادة في الإسلام واسعٌ إلى أبعد درجات الاتّساع. فكلّ عملٍ صالح بمقياس الإسلام يريد به المسلم وجه ربّه الأعلى هو نوعٌ من العبادة بما في ذلك أن يضع الزّوج لقمة الطّعام في في زوجه، كما جاء في الحديث الصّحيح.

إنّ المطلوب من المسلمين لله تعالى ربّ العالمين أن يعبدوه حقّ العبادة وأن يتّقوه حقّ تقواه.

فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾

فتقطّعوا أمرهم بينهم : فرّقوه. تفرّقوا يهود ونصارى(١) فتفرّق القوم الّذين أمرهم الله من أمّة الرّسول عيسى بالاجتماع على الدّين الواحد والملّة الواحدة دينهم الّذي أمرهم الله بلزومه(٢).

زبرا : ثمّة قراءاتان زُبُرا، بضمّتين، وزُبَرا، بضمّ الزّاي وفتح الباء(٣) والمعنى في زُبُر وزُبَر واحد، أراد قِطعاً، جمع زُبْرة(٤) والزُّبْرة قطعةٌ عظيمةٌ من الحديد(٥) والقطعة الضّخمة منه، والجمع زُبَر. قال الله تعالى(٦) : ﴿آتوني زُبَر

(١) معاني القرآن للفرّاء ٢/ ٢٣٧.

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ٢٣.

(٣) انظر تفسير الطّبري ١٨/ ٢٣.

(٤) انظر معاني القرآن للفرّاء ٢/ ٢٣٨ والهامش رقم (١).

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «زبر» ٢١١

(٦) سورة الكهف ٩٦.

الحديد﴾ وزُبُر، بالرّفع أيضاً. قال الله تعالى : ﴿فتقطّعوا أمرهم بينهم زُبُرا﴾ أي قِطَعا(١) وقال الزّجّاج : من قرأ زُبُراً أراد قطعاً جمع زُبْرة وإنّما أراد تفرّقوا في دينهم(٢).

كلّ حزبٍ بما لديهم فرحون : معجَبون بدينهم. يرون أنّهم على الحقّ(٣). كلّ فريقٍ من تلك الأمم بما اختاروه لأنفسهم من الدّين والكتب فرحون معجبون به لا يرون أنّ الحقّ سواه(٤).

فذرهم في غمرتهم : فدع يا محمّد هؤلاء الّذين تقطّعوا أمرهم بينهم زبراً في ضلالتهم وغيّهم(٥) والغَمْر والغامر : الماء الكثير الذي يُزيل أثر سيله. والغَمْرة : مُعْظَمُ الماء السّاترةُ لمقرّها. وجُعِل مثلاً للجهالة الّتي تَغْمُرُ صاحبها(٦).

حتّى حين : إلى أجلٍ سيأتيهم عند مجيئه عذابي(٧).

في ضوء حديث الآيات الكريمات السّابقات عن المرسلين السّابقين وندائهم يصحّ أن يقال إنّ الآيتين الكريمتين تتحدّثان عن أتباع المرسلين السّابقين الّذين بعثهم الله تعالى بدين الإسلام بمعناه العام. وبناءً على ذلك يكون معنى الآيتين الكريمتين، والله تعالى أعلم، فتقطّع أولئك الأتباع دينهم بينهم قطعاً، وتفرّقت تلك الجماعات شيعاً، بباعث ذاتيّ، مبعثه الأهواء والأطماع الشّخصيّة، وليس بباعث خارجيّ، كانعدام الدّليل وفقدان الحجّة. والعجيب في أمر تلك الجماعات والشّراذم أنّ كلّ حزبٍ فَرِحٌ بما لديه من اعتقاد، سعيدٌ بما عنده من إمام، لاعتقاده

---

(١) لسان العرب : «زبر».

(٢) لسان العرب : «زبر».

(٣) معاني القرآن للفرّاء ٢/ ٢٣٨.

(٤) تفسير الطّبري ١٨/ ٢٣.

(٥) تفسير الطّبري ١٨/ ٢٤.

(٦) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني : «غمر» ٣٦٥.

(٧) تفسير الطّبري ١٨/ ٢٤

أنّه وَحْدَه المنتمي إلى الفرقة النّاجية. فدع يا محمّد هؤلاء الّذين تفرّقت بهم السّبل عن سبيل الله تعالى في ضلالتهم حتّى حين، وفي غيّهم إلى وقتٍ يجيئهم فيه العذاب، ويأخذهم الهلاك.

وفي ضوء حديث الآيات الكريمات اللاّحقات لهاتين الآيتين الكريمتين عن المشركين في آيتين كريمتين وعن المؤمنين في عددٍ من الآيات الكريمات بعد ذلك، يصحّ أن يقال إنّ الآيتين الكريمتين تتحدّثان عن أتباع محمّد بن عبدالله ﷺ الّذي بعثه الله تعالى بدين الإسلام بمعناه الخاصّ. إنّ ثمّةَ فرقةً ناجيةً واحدةً وهي الّتي تسير في سبيل الله تعالى المستقيم على هَدْيٍ من القرآن الكريم وسنّة خاتم النّبيّين محمّد بن عبدالله ﷺ. والعجيب في أمر تلك الفرق الخارجة عن الصّراط المستقيم أنّها فرحةٌ بما عندها من علمٍ وإمام لاعتقادها أنّها وحدها على الصّراط المستقيم. وقد بيّن حال الفرقة النّاجية والفرق الضّالّة عن سواء السّبيل قول الحقّ جلّ وعلا في سورة الأنعام(١) : ﴿وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولا تتّبعوا السّبل فتفرّق بكم عن سبيله. ذلكم وصّاكم به لعلّكم تتّقون﴾ روى الإمام أحمد وآخرون عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ خطّ خطّاً بيده ثمّ قال : هذا سبيل الله مستقيما. وخطّ عن يمينه وشماله ثمّ قال : هذه السّبل ليس منها سبيلٌ إلاّ عليه شيطانٌ يدعو إليه، ثمّ قرأ : ﴿وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولا تتّبعوا السّبل فتفرّق بكم عن سبيله﴾(٢).

إنّ الآية الكريمة الأخرى تخاطب المصطفى ﷺ في شأن الكافرين من قومه عليه الصّلاة والسّلام وتقول له : دعم في غيّهم وضلالتهم إلى وقت نزول العذاب بهم إن لم يتوبوا ويؤمنوا ويعملوا صالحا.

---

(١) الآية ١٥٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ١٩٠.

أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا

نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾

نمدّهم به من مالٍ وبنين: نعطيهم في عاجل الدّنيا من مالٍ وبنين(١)

نسارع لهم في الخيرات: نعجّل(٢) ونسابق لهم في خيرات الآخرة ونبادر لهم فيها(٣)

يصحّ أن يتّجه الخطاب إلى الخارجين عن الصّراط المستقيم السّابقين وإلى كفّار مكّة اللّاحقين ومن شاكلهم من المشركين. أيحسب هؤلاء وهؤلاء أنّ ما نعطيهم في عاجل دنياهم من مالٍ غزير وولدٍ كثير، أنّنا نعجّل لهم من الخيرات في الدّنيا، دليلاً على حظّهم الأكبر الموفورٍ في الآخرة. إنّ مثل هذا المعنى هو الّذي تحدّثت به نفس الغنيّ الكافر الّذي آتاه الله تعالى من فضله جنتين من أعنابٍ وزرعٍ ونخيل فظنّ أنّ إكرامه في الدّنيا دليلٌ على إكرامه في الآخرة إن كان ثمّةٌ بعثٌ وجزاء. وإلى هذه المعاني أومأت الآيتان الكريمتان من سورة الكهف(٤): قال تعالى ﴿ودخل جنّته وهو ظالمٌ لنفسه قال ما أظنّ أن تبيد هذه أبدا. وما أظنّ السّاعة قائمةً ولئن رددت إلى ربّي لأجدنّ خيراً منها مُنْقَلَبا﴾ إنّ هؤلاء الخارجين عن الصّراط المستقيم بلغ بهم تبلّد الشّعور إلى الدّرك الّذي لم يفطنوا معه إلى أنّ ذلك استدراجٌ من الله تعالى لهم ومكرٌ بهم، إن لم يفيقوا من غفلتهم، ويعودوا إلى جادّة الصّواب.

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ٢٤

(٢) الجلالين

(٣) تفسير الطّبري ١٨/ ٢٤

(٤) الآيتان ٣٥ و٣٦

إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم
بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾
وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾
أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَـٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

والّذين هم بآيات ربّهم يؤمنون: أي يؤمنون بآياته الكونيّة والشّرعيّة(١)

والّذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة: أي خائفة(٢) روى الإمام أحمد عن عائشة أنّها قالت: يا رسول الله، الّذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة، هو الّذي يسرق ويزنى ويشرب الخمر وهو يخاف الله عزّ وجلّ؟ قال لا يا بنت الصّدّيق ولكنّه الّذي يصلّي ويصوم ويتصدّق وهو يخاف الله عزّ وجلّ(٣) وروى التّرمذيّ الحديث عن أبي هريرة عن النّبي ﷺ (٤) وهكذا قال ابن عبّاس ومحمّد بن كعب القرظي والحسن البصريّ في تفسير هذه الآية(٥)

أنّهم إلى ربّهم راجعون: لأنّهم إلى ربّهم راجعون(٦) أو من أنّهم إلى ربّهم راجعون(٧)

وهم لها سابقون: في علم الله(٨) يقول ابن عبّاس: سبقت لهم السّعادة(٩)

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٢٤٨

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ٢٥

(٣) تفسير ابن كثير ٣/٢٤٨

(٤) تفسير ابن كثير ٣/٢٤٨

(٥) تفسير ابن كثير ٣/٢٤٨

(٦) الجلالين

(٧) تفسير الطّبري ١٨/ ٢٥, ٢٦

(٨) الجلالين

(٩) تفسير الطّبري ١٨/ ٢٧

وكان بعضهم يتأوّل ذلك بمعنى وهم إليها سابقون(١)

ولا نكلّف نفساً إلاّ وسعها: الوسع الطّاقة والجِدة(٢) وما تتّسع له قدرة الإنسان دون المجهود في المشقّة(٣)

يقرّر السّياق أنّ المؤمنين الّذين هم من خشية ربّهم مشفقون، ويباعث الحب لله تعالى والخوف منه عزّ وجلّ وجلون من عذابه، والّذين هم بآيات ربّهم في القرآن الكريم وفي الكون يؤمنون ويصدّقون، والّذين هم بربّهم عزّ وجلّ الّذي ربّاهم بنعمه وآلائه لا يشركون بل يفردونه تعالى بالعبادة ، والّذين يؤتون ما آتوا وعملوا من صالحاتٍ من صلاةٍ وزكاةٍ وصدقةٍ وسائر صنوف البرّ، ومع ذلك فإنّ قلوبهم الّتي في صدورهم شديدة الإشفاق ألاّ يتفضّل الله تعالى بقبولها، وعظيمة الخوف لأنّهم إلى ربهّم جلّ وعلا راجعون يوم القيامة، ومِنْ أجل أنّهم مبعوثون ليومٍ عظيم، يقومون فيه لربّ العالمين. إنّ أولئك الّذين تلك صفاتهم يسارعون في عمل الخيرات وهم سابقون غيرهم إليها ، وسابقون في علم الله تعالى، ومقرّبون إليه جلّ وعلا.

وممّا يلاحَظُ بشأن الخشية مجيء اسم الفاعل: ﴿مشفقون﴾ دليلاً على أنّ الإشفاق بباعث خشية الله تعالى صفةٌ راسخةٌ في نفوس المؤمنين. وممّا يلاحظ كذلك بشأن الإيمان بآيات الله تعالى مجيء الجملة الفعليّة: ﴿يؤمنون﴾ دليلاً على تجدّد إيمان المؤمنين بعدد مرّات آيات الله تعالى البيّنات في الكتاب العزيز وفي الكون.

إنّ هذه النّعوت من صميم صفات المؤمنين، وهي بفضل الله تعالى ميسّرة للّذين هداهم الله تعالى وجاهدوا في سبيله جلّ وعلا. والله تعالى لا يكلّف نفساً إلاّ وسعها، ولا يحمّلها من التكاليف ما يستنفد كلَّ طاقتها، ولكن ما تسعه قدرتها، ويبقى لديها وراء ذلك بقيّةٌ من قوّة وفضلٌ من طاقة. وإنّ كلّ ما يقوم به

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ٢٧

(٢) تفسير القرطبي ١٢٣٧

(٣) انظر البحر المحيط ٢/ ٣٦٦

النّاس من أعمالٍ صالحة أو طالحة مدوّنٌ في كتابٍ عند الله تعالى ينطق بالحقّ، ويقول الصّدق، وهو اللّوح المحفوظ. ولا يظلم ربّكَ أحداً من خلقه بحذف حسنةٍ إو إضافة سيّئة.

بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾

في غمرة: في عمىً(١) وغفلةٍ وضلالة(٢) وجهالة(٣).

من هذا: القرآن(٤) ولهم أعمالٌ من دون ذلك هم لها عاملون: أي قد كُتِبَتْ عليهم أعمالٌ سيّئة لابدّ أن يعملوها قبل موتهم لا محالة، لتحقّ عليهم كلمة العذاب. ورُوِي نحو هذا عن مقاتل بن حيّان والسّدّي وعبدالرّحمن بن زيد ابن أسلم. وهو ظاهرٌ قويٌّ حسن(٥)

ليس الأمر كما زعم أولئك المشركون الّذين ظنّوا أنّ ما أمدّهم الله تعالى به من أموالٍ وبنين مسارعةٌ لهم منه جلّ وعلا بالخيرات، بل الحقيقة أنّ قلوبهم الّتي في صدورهم قد عميت عن هذا الكتاب العزيز والقرآن المجيد. وإنّ لهؤلاء المشركين أعمالاً طالحةً دون الشّرك قد سبق علم الله تعالى إلى أنّهم سوف يأتونها لذا هم يمهلهم الله تعالى إلى حين، وهم لعمى بصائرهم يحسبون إمهال الله تعالى لهم إهمالاً، فلا ينتهون عن الشّرك، ولا يرتدعون عن عمل السّيّئات.

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ٢٧

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٤٩

(٣) الجلالين

(٤) تفسير الطّبري ١٨/ ٢٧ وتفسير ابن كثير ٣/ ٢٤٩

(٥) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٤٩

حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَـٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَـٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾

حتّى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب: أهل النّعمة والبطر منهم(١)

إذا هم يجأرون: ضجّوا واستغاثوا ممّا حلّ بهم من عذابنا. ولعل الجؤار رفع الصّوت كما يجأر الثّور(٢)

على أعقابكم: العَقِب مؤخرّ الرِّجل وجمعه أعقاب(٣)

تنكصون: النُّكوص الإحجام عن الشّيء(٤) والإدبار. عن ابن عبّاس، قوله: ﴿فكنتم على أعقابكم تنكصون﴾ يقول: تُدْبرون(٥) وكذلك يقال لكلّ من رجع من حيث جاء نكص فلانٌ على عقبه(٦) وعن مجاهد تنكصون: تستأخرون(٧)

مستكبرين به: مستكبرين بحرم الله يقولون: لا يظهر علينا فيه أحدٌ لأنّا أهل الحرم(٨) وعن مجاهد بمكّة بالبلد(٩)

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ٢٨

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ٢٨

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «عقب» ٣٤٠

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «نكص» ٥٠٦

(٥) تفسير الطّبري ١٨/ ٢٩

(٦) تفسير الطّبري ١٨/ ٢٩

(٧) تفسير الطّبري ١٨/ ٣٠

(٨) تفسير الطّبري ١٨/ ٣٠

(٩) تفسير الطّبري ١٨/ ٣٠

سامراً: تسمرون بالليل. ووحّد قوله: ﴿سامراً﴾ وهو بمعنى السّمّار، لأنّه وضع موضع الوقت. ومعنى الكلام: تهجرون ليلاً. فوضع السّامر موضع اللّيل فوحّد لذلك(١)

تهجرون: لهذه القراءة وجهان من المعنى. أحدهما أن يكون عنى أنّه وصفهم بالإعراض عن القرآن أو البيت أو رسول الله ﷺ ورفضه. والآخر أن يكون عَنَى أنّهم يقولون شيئاً من القول كما يهجر الرّجل في منامه وذلك إذا هَذَى(٢) والهُجْر: الكلامَ القبيح المهجور لقبحه. وفي الحديث: ولا تقولوا هُجْراً. وأهجر فلانٌ إذا أتى بهُجْرٍ من الكلام عن قصد. وهَجَر المريض إذا أتى ذلك من غير قَصد(٣)

حتّى إذا أخذ الله تعالى أغنياء كفّار مكّة ومترفيهم بالعذاب، سادتهم وكبراءهم بالهلاك، إذا هم لهول المفاجأة وقوّة العذاب يصرخون من شدّة الألم، ويصيحون طالبين تحويل العذاب عنهم أو تخفيفه فيقال لهم: لا ترفعوا اليوم أصواتكم بالاستغاثة أو التّوبة أو الاستغفار، إنّكم اليوم لا تُنْصَرون بصرف العذاب عنكم أو تخفيفه. هكذا قضت مشيئة الله تعالى. إنّ آيات الكتاب العزيز البيّنات كانت تقرأ عليكم فكنتم تدبرون عنها، وترجعون القهقرى فراراً منها، وتستكبرون عن الإيمان، وتستنكفون عن إفراد الله تعالى بالعبادة في حرمه عزّ وجلّ وبجوار بيته العتيق، وبدلاً من الاستجابة للرّسول ﷺ والإيمان بالله تعالى أنتم تسمرون بالحرم وتقضون ليلكم بقول الهُجْر من القول والقبيح منه في حقّ الرسول الكريم، والقرآن المجيد، وربّ العرش العظيم.

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ٣٠

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ٣١

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «هجر» ٥٣٧

(٦)
(بعض مظاهر عمى بصائر الكافرين وعذاب الله تعالى لهم)
الآيات (٦٨ ـ ٧٧)

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ
ءَابَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ
﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ
كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَٰوَٰتُ
وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن
ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾

أفلم يدبّروا: أصله يتدبّروا فأدغمت التّاء في الدّال(١)

أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأوّلين: أم جاءهم أمر مّا لم يأت مَنْ قبلهم مِنْ أسلافهم فاستكبروا ذلك وأعرضوا فقد جاءت الرّسل من قبلهم وأنزلت معهم الكتب(٢).

جنّة: جنون(٣)

ولو اتّبع الحقّ أهواءهم: قال مجاهد وأبو صالح والسّدّى: الحقّ هو الله تعالى عزّ وجلّ. والمراد لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى وشرع الأمور على وفق ذلك لفسدت السّماوات والأرض ومن فيهنّ، أي لفساد أهوائهم واختلافها(٤)

---

(١) الجلالين

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ٣٢

(٣) تفسير الطّبري ١٨/ ٣٢

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٥٠ وانظر تفسير الطّبري ١٨/ ٣٣

بل أتيناهم بذكرهم: أي القرآن الّذي فيه ذكرهم وشرفهم(١)

أفلم يتدبّر كفّار مكّة القول الّذي جاءهم من ربّ العالمين، موحىً به إلى رسولٍ من البشر كريم، هو محمّدٌ ﷺ، بواسطة رسولٍ من الملائكة كريم، هو جبريل عليه السّلام، أمين الله تعالى على وحيه. الحقيقة أنّ كفّار مكّة لم يتدبّروا القرآن الكريم، لأنّهم لو تدبّروه حقّ التّدبّر وهم فرسان البيان، لآمنوا بأنّه كلام ربّ العالمين، ولبادروا إلى اتّباع الرّسول الأمين، صلوات ربّ العالمين وسلامه عليه وعلى سائر النّبيّين والمرسلين.

أَمْ أنّ كفّار مكّة تدبّروا القرآن فتبيّنوا أنّهم خُصُّوا وَحْدَهم من بين الأمم بالرّسول الكريم والقرآن العظيم وبما اقترن بكلّ ذلك من تكاليف شاقّة تنوء بها كواهلهم. لو أنّهم تدبّروا القرآن الكريم لتبيّنوا أنّهم ليسوا بِدْعاً من الأمم، فمحمّد ابن عبدالله ﷺ خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين عليهم صلوات ربّ العالمين وسلامه أجمعين، والقرآن الكريم آخر الكتب السّماويّة وأشرفها. إنّ كفّار مكّة لم يتدبّروا القرآن الكريم أصلاً وهذا أساس البلاء.

أمّ أنّ كفّار مكّة لم يعرفوا رسولهم محمّداً ﷺ لذا فهم له منكرون بسبب جهلهم به عليه الصّلاة والسّلام. ولكنّه عليه الصّلاة والسّلام عاش بين ظهرانَيْ قومه أربعين سنةً قبل البعثة، وكانوا يلقّبونه بالأمين لفرط أمانته وصدقه وعظيم خلقه ﷺ. وقد شهد للمصطفى ﷺ بكمال الخلق وعظمه الأعداء قبل الأصدقاء، والكافرون قبل المؤمنين. لقد كان الأحرى بكفّار مكّة أن يبادروا إلى تصديق الرّسول الأمين ﷺ فيما بلّغهم عن ربّه جلّ وعلا ولكنّهم مصرّون على الكفر والعناد.

أم أنّ كفّار مكّة يقولون إنّ محمّداً ﷺ مجنون لأنّه جاءنا بالباطل من القول. إنّ القوم لم يتدبّروا القرآن الكريم أصلاً لذا هم ينزّلون المصطفى ﷺ منزلة المجنون. ولو أنّهم تدبّروا القرآن الكريم لتبيّنوا أنّ محمّداً ﷺ جاءهم بالحقّ من

---

(١) الجلالين

ربّهم جلّ وعلا وبالحكمة وبالقول المبين. الحقيقة أنّ كفّار مكّة يكرهون الحقّ ويهوون الباطل ولذا هم يتّهمون القرآن الكريم بأنّه كلام بشرٍ به جنون. ومادامو اتّهموا مبلّغ القرآن الكريم بالجنون، فالقرآن الكريم حسب زعمهم ليس من الحقّ في شيء، بل هو هذيان مجنون.

وتجاه هذه الحماقات الّتي لا تريد أن تقف عند حدّ، يقرّر السّياق بصريح اللّفظ بأنّ الحقّ جلّ وعلا الّذي قوله الحقّ وأنزل القرآن الكريم بالحقّ وجعل الحقّ غاية القرآن الكريم، بأنّ الحقّ جلّ وعلا لو اتّبع أهواء كفّار مكّة ومن شاكلهم لفسدت السّماوات والأرض ومن فيهنّ وما فيهنّ. إنّ على كفّار مكّة أن يعلموا أنّ الله سبحانه وتعالى، بالحقّ أنزل القرآن الكريم، وأنّ القرآن الكريم نزل بالحقّ، وأنّ الحقّ جلّ وعلا أتى كفّار مكّة بذكرهم وعزّهم وشرفهم ومجدهم وسؤددهم. والعجيب في كفّار مكّة أنّهم عن كلّ هذه النّعم معرضون، ولها منكرون، فبأيّ حديث بعد هذا القرآن الكريم، والبيان المبين، يؤمنون ويصدّقون!

أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ
وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾
وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾
۞ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ
وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ
إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾

خرجاً: أجرا (١)

فخراج ربّك خير: فأجر ربّك على نفاذك لأمره وابتغاء مرضاته خيرٌ لك من ذلك(٢)

لناكبون: لمائلون. يقال: نكب عن كذا أي مال(٣) وعادلون. يقال منه: قد نكب فلان عن كذا إذا عدل عنه ونكب عنه أي عدل عنه(٤)

للجّوا في طغيانهم: اللّجاج التّمادي والعناد في تعاطي الفعل المزجور عنه. وقد لجّ في الأمر يَلِجّ لَجاجا(٥)

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ٣٣

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ٣٣

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «نكب» ٥٠٤

(٤) تفسير الطّبري ١٨/ ٣٤

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «لج» ٤٤٧

يعمهون: العَمَه: التّردّد في الأمر من التّحيّر(١)

فما استكانوا لربّهم: فما خضعوا لربّهم فينقادوا لأمره ونهيه وينيبوا إلى طاعته(٢) استكان فلان تضرّع. وكأنّه سكن وترك الدّعة لضراعته(٣)

وما يتضرّعون: وما يتذلّلون(٤) عن ابن عبّاس قال: جاء أبو سفيان إلى النّبيّ ﷺ فقال: يا محمّد أنشدك الله والرّحم فقد أكلنا العِلْهِز(٥) يعني الوبر والدّم. فأنزل الله تعالى الآية الكريمة(٦)

إذا هم فيه مبلسون: أبلس من رحمة الله أي يئس وندم(٧) والإبلاس: الحزن المعترض من شدّة اليأس. ولمّا كان المُبْلِسُ كثيراً ما يلزم السّكوت ويَنْسىَ ما يعنيه قيل أَبْلَسَ فلانٌ إذا سكت وإذا انقطعت حجّته(٨)

أم أنّ كفّار مكّة انصرفوا عن الدّعوة إلى صراط العزيز الحميد لأنّك يا محمّد تسألهم مقابل دعوتك لهم أجراً وتطلب منهم مالاً. إنّك لا تسألهم أجراً، ثمّ إنّ الأجر العظيم الّذي أعدّه الله تعالى لك يا محمّد خيرٌ من كلّ أجرٍ في هذه الدّنيا ومال. والله سبحانه وتعالى خير الرّازقين في الدّنيا والآخرة من الجزاء والثّواب.

وإنّك يا محمّد لا تسألهم أجراً، رغم أنّك تقدّم لهم أجلّ عمل، وهو دعوتك لهم إلى دين الإسلام، الطّريق القويم والصّراط المستقيم.

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «عمه» ٣٤٨

(٢) تفسير الطّبري ١٨/ ٣٤

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «كان» ٤٤٥

(٤) تفسير الطّبري ١٨/ ٣٤

(٥) العِلْهِز، بكسر العين وسكون اللّام وكسر الرّاء: دمٌ يابسٌ يدقّ به أوبار الإبل في المجاعات ويؤكل. لسان العرب: «علهز»

(٦) تفسير الطّبري ١٨/ ٣٤

(٧) لسان العرب: «بلس»

(٨) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «بلس» ٦٠

والحقيقة أنّ كفّار مكّة لا يؤمنون بالآخرة من بعثٍ ونشورٍ وحسابٍ وجزاء، ولهذا هم عن الصّراط المستقيم مائلون، والطّريق القويم عادلون.

ولو أنّ ربّ العزّة رحمهم بعد غضبه عزّ وجلّ عليهم، وكشف ما بهم من ضرٍّ من جدبٍ وقحطٍ ومرضٍ وما إلى ذلك لاستمرّوا على ما نهوا عنه من كفر، وتمادوا في طغيانهم يعمهون، وفي غيّهم وعنادهم يتحيّرون ويتردّدون. ولقد أخذهم الله تعالى بالعذاب الشّديد فما خضعوا لربّهم جلّ وعلا وما تذلّلوا له بل قست قلوبهم، وسوّلت لهم أنفسهم، وزيّن لهم الشّيطان الرّجيم سوء أعمالهم.

حتّى إذا فتح الله تعالى عليهم باباً ذا عذابٍ شديد، وأخذٍ أكيد، إذا هم في غمرة العذاب، وشدّة الأخذ، آيسون من رحمة الله تعالى، مستسلمون لقضائه عزّ وجلّ، قد انقطعت حجتهم فسكتوا، واستبدّ بهم النّدم بعد فوات الأوان فتبلّدوا.

والآيات الكريمات تأخذ بسببٍ من هذه الآيات الكريمات في سورة الأنعام(١) قال عزّ من قائل: ﴿ولقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضّرّاء لعلّهم يتضرّعون. فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرّعوا ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشّيطان ما كانوا يعملون. فلمّا نسوا ما ذكّروا به فتحنا عليهم أبواب كلّ شيءٍ حتّى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتةً فإذا هم مبلسون. فَقُطِع دابر القوم الّذين ظلموا. والحمد لله ربّ العالمين﴾

---

(١) الآيات ٤٢ – ٤٥

(٧)
(المشركون يصرّون على كفران النّعم وإنكار البعث وتكذيب الآيات)
الآيات (٧٨ ـ ٩٢)

وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ
وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ
ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾

وهو الّذي أنشأ لكم: والله الّذي أحدث لكم أيّها المكذّبون بالبعث بعد الممات(١)

والأفئدة: العقول والفهوم الّتي يذكرون بها الأشياء ويعتبرون بما في الكون من الآيات الدّالّة على وحدانيّة الله وأنّه الفاعل المختار لما يشاء(٢)

قليلاً ما تشكرون: قليلاً: مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته أي تشكرون شكراً قليلاً. ما: زائدة لتأكيد القلّة(٣)

ذرأكم: خلقكم(٤)

وله اختلاف اللّيل والنّهار: وهو الّذي جعل اللّيل والنّهار مختلفين(٥)

الله تعالى وحده لا شريك له هو الّذي أوجد لنا السّمع، فنحن نسمع الأصوات بآذاننا، والمعروف أنّ حاسّة السّمع تتقدّم سائر الحواسّ في مجال

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ٣٥

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ٢٥٢

(٣) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٩/ ١٨٠

(٤) تفسير الطّبري ١٨/ ٣٦

(٥) تفسير الطّبري ١٨/ ٣٦

التّعلّم، وهو الّذي أوجد لنا الأعين الّتي نبصر بها، والعقول والفهوم الّتي ندرك بها المعاني ونفهم بها الأشياء. ويبدو شيءٌ من قيمة هذه النّعم حينما يتخيّل المرء نفسه وقد حرمه الله تعالى من تلك النّعم أو من بعضها. إنّ علينا أن نشكر لله تعالى نعمه العظيمة علينا، وفي مقدّمتها نعم القدرة على السّمع والبصر والفهم. والعجيب في أمر الكافرين أنّهم لا يقومون بما يجب عليهم من شكرٍ لله تعالى على تلك النّعم والآلاء، وإن كان منهم نوعٌ من الشّكر فهو النّزر اليسير منه. وأكبر مظاهر كفرهم أنّهم يشركون مع الله تعالى في العبادة سواه.

والله سبحانه وتعالى هو الّذي خلقنا ونشرنا في أرضه عزّ وجلّ الطّويلة العريضة، وإليه جلّ وعلا نُحْشر ونرجع ونُجْمع يوم القيامة من أجل الحساب فالجزاء، الثّواب أو العقاب، فواجب النّاس أن يعملوا في الحياة الأولى ليوم الجزاء في الحياة الآخرة.

والله سبحانه وتعالى هو الّذي يوجد المخلوقات من العدم ويحييها، وهو الّذي يميتها حينما يشاء ويفنيها ، وهو الّذي جعل اللّيل والنّهار مختلفين، فهذا يقبل وهذا يدبر، وهذا منيرٌ وهذا مظلم، وهذا طويلٌ وهذا قصير، إلى غير ذلك من اختلاف الصّفات. إنّ واجب المكلّفين أن يستعملوا عقولهم استعمالاً صحيحاً، وذلك بإفراد الله تعالى بالعبادة، فله عزّ وجلّ وحده لا شريك له، الخلق والأمر، وبالعمل لما بعد الموت، من بعثٍ وحسابٍ وجزاء.

بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ
الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا
لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا
إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾

إن هذا: ما هذا الّذي تعدنا من البعث بعد الممات(١)

إلاّ أساطير الأوّلين: الأساطير الأكاذيب(٢) وما سطّره الأوّلون في كتبهم من الأحاديث والأخبار الّتي لا صحّة لها ولا حقيقة(٣) جمع أُسطورة نحو أرجوحة وأراجيح، وأُحدوثة وأحاديث(٤)

إنّ كفّار مكّة المكرّمة ومن شاكلهم بدلاً من أن يعودوا إلى الصّراط المستقيم بعد لفت انتباههم إلى بعض مظاهر آيات الله تعالى البيّنات وقدرته المطلقة عزّ وجلّ هم يحكّمون عقولهم السّقيمة الّتي حادت بهم عن سواء السّبيل. إنّهم يقولون مثل ما قال عمي البصائر من الكافرين السّابقين. إنّهم يقولون أئذ امتنا وكانت أجسادنا تراباً وعظاماً تتفتّت بعد حين وتغدو رميما، أئنّا لمبعوثون إلى الحياة مرّةً أخرى! إنّنا نوعد اليوم بالبعث بعد الموت كما وُعِدَ آباؤنا من قبل، ونحن نرفض هذا الزّعم كما رفضوه من قبل، وليس هذا الّذي نوعد به من حياةٍ بعد الموت وحسابٍ وجزاء إلاّ أساطير الأوّلين وأكاذيبهم.

وإنّما أنكر كفّار مكّة ومن شاكلهم البعث لأنّهم لم يفكّروا في نشأتهم

---

(١) تفسير الطّبري ١٨/ ٣٦

(٢) الجلالين

(٣) تفسير الطّبري ١٨/ ٣٦

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «سطر» ٢٣٢

الأولى كي ينتهوا إلى أنّ الحياتين سواءٌ في حقّ الذّات العليّة.

قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ
﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ
﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ
مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾

وربّ العرش العظيم: العرش في الأصل شيءٌ مسقّف. وجمعه عُروش(١) والعرش: سرير المَلك، يدلّك على ذلك سرير ملكة سبأ. سمّاه الله عزّ وجلّ عرشاً فقال عزّ من قائل(٢): ﴿إنّي وجدت امرأةً تملكهم وإوتيت من كلّ شيءٍ ولها عرشٌ عظيم﴾ وقد يستعار لغيره، وعرش الباري سبحانه ولا يُحَدّ(٣) وعرش الله ما لا يعلمه البشر على الحقيقة إلاّ بالاسم(٤) والعظيم هنا بمعنى الكبير. وقال تعالى في آخر السّورة(٥): ﴿ربُّ العرش الكريم﴾ أي الحسن البهيّ. فقد جمع

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «عرش» ٣٢٩

(٢) سورة النّمل ٢٣

(٣) لسان العرب: «عرش»

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «عرش» ٣٢٩

(٥) سورة المؤمنون ١١٦